مخاطر تواجه الأسرة المسلمة

<"xml encoding="UTF-8?>

جاء الزواج في الإسلام كأسمى نظامٍ وتشريع يحفظ للإنسان كرامته ، ويصونه ويميِّزه عن سائر المخلوقات الأخرى .

ولقد دعا الإسلام الحنيف في هذا النظام الذي تقوم عليه الأسرة الرجل المقبل على الزواج ، أن يقدِّم لزوجته صداقاً بعنوان مِنْحة ، تقديراً وتعبيراً عن الرغبة في تكوين الرباط المقدس .

ولو أن الناس التزموا بآداب وتوجيهات أهل بيت النبوة (عليهم السلام) في الزواج ، لما كانت هناك عُنُوسة متزايدة ، ولما كان هناك شباب منحل ، وانحراف عن آداب الإسلام وتعاليمه .

وكذلك ما تفكَّكت الأُسَر ، وتضعضعَتْ أركانُها ، وضعفت أُسُسُها إلى هذا الحد المؤسف ، الذي بات يُنذر بالعواقب الوخيمة ، ويهدِّد مصير الأسر المسلمة .

تَحَدِّيان خطيران :

إن التقدم التكنولوجي والحضاري الذي غيَّر أساليب المعيشة في أكثر البقاع في العالم ، وجعل الوسائل الحديثة تزيِّن كل شارع ومدينة ، وتجمِّل كل بيت ومنزل ، حمل معه تحدِّيَين في غاية الخطورة ، و خاصة في المجتمعات الإسلامية :

التحدِّي الأول :

تَعَقُّد الحياة الاجتماعية ، وحصول عدد من المصاعب والعَقَبات في أسلوب حياة الأفراد وعملهم ، مِمَّا أدَّى إلى ازدياد حالات العنوسة ، وإضراب الشباب المسلم عن الزواج ، أو تأخيره إلى سنوات طويلة .

التحدي الثاني :

المفاسد الاجتماعية ، وظاهرة التحلُّل الأخلاقي ، والتي تتصاعد يوماً بعد آخر ، وأصبحت تهدِّد مستقبل الأُسَر المسلمة وتماسُكِها المعهود .

الزواج وتحقيق المصالح الاجتماعية :

الزواج في الإسلام استجابةً للفطرة الإنسانية ، حيث يحمل المسلم في نفسه أمانة المسؤولية الكبرى تجاه من له في عنقه حق التربية والرعاية .

ولا بُدَّ قبل التعرض إلى نقطة الهدف التي ننشدها في هذا الموضوع ، وهي ضرورة عدم تأخير الزواج بإزالة كل الأسباب والعقبات التي تقف أمامه ، وذلك بتوضيح ما للزواج من فوائد عامّة ، ومصالح اجتماعية .

ونذكر أبرز تلك الفوائد والمصالح فيما يلي :

الأولى : الحفاظ على النوع الإنساني ، إذ به يتكاثر ويستمر النسل الإنساني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الثانية : المحافظة على الأنساب .

الثالثة : سلامة المجتمع من الانحلال الخلقي ، حيث لا يخفى على كل ذي لُبٍّ وإدراك ، أنَّ غريزة الجنس حين تُشبع بالزواج المشروع ، يتحلَّى أفراد المجتمع بأفضل الآداب ، وأحسن الأخلاق ، وأفضل ما يبيِّن هذا الأمر حَثُّ الرسولِ (صلى الله عليه وآله) الشباب على الزواج في العديد من الأحاديث الشريفة .

الرابعة : سلامة المجتمع من الأمراض ، إذ أنَّ الزواج الشرعي يبعد الشباب عن الوقوع في الزنا ، ويَحُول دون شيوع الفاحشة ، وهذا من شأنه أن يكون سبباً إلى أمراض شَتَّى ، منها مرض الزهري ، وداء السيلان ، ومرض الإيدز الخطير .

الخامسة : في الزواج سكن روحي ونفسي ، به تنمو روح الموَدَّة والرحمة ، وينسى الزوج ما يكابده من عناءٍ في نهاره حين يجتمع بأفراد أسرته ، وهُم بالمقابل يَحِنُّون إليه ويأنسون به ، وصَدَق الله إذ يُصوِّر هذا الوضع بقوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الروم ٢١ .

السادسة : في الزواج تعاون الجنسين في بناء الأسرة ، وتربية الأولاد ، وقد أصبحت ضرورة عدم تأخير الزواج مُلحَّة أكثر من ذي قبل ، وذلك لأسباب عِدَّة ، أهمها :

أولاً : إنقاذ الشاب من الهواجس النفسية والتأملات الجنسية ، التي تسيطر على عقله وتفكيره ، وتقف عائقاً في طريق غايته ، ونشاطه العملي والوظيفي ، بل وحتى الدراسي .

ثانياً : إبعاد الشاب عن الوقوع في حبائل الشيطان التي تروِّج لها المغريات الكثيرة في العصر الحاضر ، كظهور النساء سافرات ، إلى جانب تبرجهن الفَتَّان في كافة الوسائل الإعلامية وغير الإعلامية ، كالمجلات ، وأجهزة التلفزيون ، والقنوات الفضائية ، والإنترنت .

بحيث أصبح الشباب لا يستطيعون درأ أخطارها إلا بتمسكهم بدينهم ، وتملُّكهم لنصف الدين ، مُصداقاً لما ورد في الحديث الشريف : (الزواجُ نِصف الدين ، فليتَّقِ الله في النصف الأخر) .

ثالثاً : في عدم تأخير الزواج لحاق الذرية بوالديها قبل شيخوختهما ، التي تحدُّ من نشاطهما ، إن لم نقل عجزهما عن القيام بواجباتهما تجاه أولادهما ، وفي هذا ما فيه من انضمام وتعاون الأولاد إلى تعاون الوالدين من أجل تنشئة الأسرة وحياتها حياة رغيدة .

رابعاً : في الإقبال على الزواج دافع قوي للشباب ، من أجل السعي والبناء وتأمين المتطلبات الأسرية .

مشاكل العنوسة – أي : عدم زواج الفتاة في الوقت المناسب – ومآسيها :

هناك الكثير من الفتيات الناضجات والواعيات المتمسكات بأخلاق الإسلام العظيمة ، ولا ينقصهن الجمال ، أو الأدب ، أو الثقافة ، أو الأسرة الكريمة ، لكنهن يشتكين من شبح العُنوسة ، الذي بات يهدِّد استقرارهُنَّ النفسي ، والاجتماعي ، والإيماني ، ويكدِّر عليهن صَفو الحياة .

وإن تحمَّلت الفتاة متاعبها وآلامها ، ورضيت بقضاء الله وقدره ، وسلَّمت له أمرها ، فإن المجتمع لا يرحم ظروفها ، ولا يقدر آلامها ، حتى أن بعض الأُسَر هي أول من تضغط على فتاتها وتذكرها بمشكلتها في أي حوار أو مشكلة .

وربما دفعت هذه الضغوط النفسية والاجتماعية الكثيرات من هؤلاء الفتيات إلى الانهيار ، والبحث عن حَلٍّ يخرجها من الأزمة ، حتى وإن خالف الأعراف والتقاليد ، وربما دفعتها النظرات والهمسات والكلمات الجارحة إلى

محاولة التخلُّص من الحياة بشكل أو بآخر .

والقليلات هُنَّ اللاتي يواجهن الموقف بقدر من التماسك ، والتفكير المنطقي ، واليقين الإيماني ، والقرب من الله تعالى .

ومما لا شَكَّ فيه أن مشكلة العنوسة لها أكثر من بُعد ، أولها : البُعد المادي ، وهذا ناتج عن غلاء المهور ، وارتفاع تكاليف الزواج بصورة كبيرة ، في ظِلِّ مشاكل اقتصادية ، وأزمات واضحة ، تمرُّ بها مجتمعات إسلامية كثيرة .

حيث يجهد الشاب كثيراً في سبيل البحث عن مسكن ، أو تجهيزه ، أو إعداده لِعِشِّ الزوجية ، هذا إذا كان هذا الشاب قد وجد عملاً ثابتاً يوفِّر له حياة مستقرة ، والحل هنا : مسؤولية فردية واجتماعية .

فأما المسؤولية الفردية ، فهي مسؤولية كل أب أو ولي أمر لفتاة في سِنِّ الزواج ، أن يعلم أنَّ : أقلَّهنَّ مَهراً أكثرهُنَّ بَركَةً .

وأن يتخلص من العادات والتقاليد التي تصعِّب الحلال ، وتيسِّر الحرام ، وأن ينظر إلى الشخص الذي يتقدم لخطبة ابنته ، نظرة تقدير لشخصه ، وليس لما يملكه من أموال وممتلكات .

أما المسؤولية الاجتماعية ، فهي مسؤولية المجتمع كَكُل ، الذي يجب أن يعينه على إكمال نصف دينه ، وبناء أسرته الجديدة بصورة يسيرة .

إن البعض ينظر إلى غلاء المهور وكثرة الطلبات التي ترهق الشباب ليس من باب الإسلام ، ولكن من باب التفاخر الاجتماعي ، والتباهي أمام المعارف والأصدقاء ، وهذا سلوك غير رشيد ، يتعارض مع دعوة الإسلام إلى اليسر والسهولة .

أما البُعد الاجتماعي في قضية العنوسة ، فلا ريب أن الحياة المعاصرة قد باعدت بين الأسر والعائلات ، وقلَّ التعارف بينها ، خصوصاً تلك العائلات المحافظة على الدين والأخلاق ، والتي لا تخرج بناتها إلا في حدود ضَيِّقة ، وبالتالي يقلُّ التعارف بين أفرادها .

وربما يجد الشاب صعوبة كبيرة في البحث عن شريكة حياته ، والتي يثق في أخلاقها وآدابها ، وبالطبع تزداد هذه المشكلة في المدن عنها في الأرياف والقرى .

وتتفاقم المشكلة أيضاً إذا اشترطت أسرة ما ألا تتزوج بناتها إلا من نفس أسرتها ، وكذلك تزداد المعضلة في حال فقدان الرجال ، أو قِلَّتهم ، وقد رغَّب الإسلام في الزواج من الأباعد والغرباء ، أي أن يسعى الشاب إلى الزواج من أسرة جديدة ليست من عائلته .

والهدف – بالإضافة إلى تحسين النسل والابتعاد عن الأمراض الوراثية – هو التعارف بين الأسر ، وتقوية أواصر المجتمع .

وبالتالي حَلٌّ جزئي لمشكلة العنوسة ، لأنَّ التعارف بين الأسر سوف يكشف من هُنَّ في سِنِّ الزواج .

شَرَّع الله أيضاً إمكانية تعدد الزوجات حتى أربع في عصمة الرجل ، وهذا أيضاً حَلٌّ لمشكلة العنوسة ، ولمشكلة الأرامل والمطلقات .

لكن تقاليد بعض المجتمعات ، تجعل الزواج الثاني جريمة لا تُعدّ لها جريمة ، وللأسف فإن غالبية الزوجات في مجتمعاتنا تكون على أهبة الاستعداد لتدمير حياتها الزوجية إذا شعرَتْ باحتمال إقدام زوجها على الزواج من أخرى ، وربما لو كانت أرملة أو مطلَّقة لفكَّرت بصورة أخرى أكثر عقلانية ، ومتوافقة مع الفطرة .

وهذه النظرة التي ترفض التعدد هي موروث اجتماعي قديم ، ولا بُدَّ أن يتغير شيئاً فشيئاً ، حتى يتوافق مع تعاليم الإسلام ، ونظامه الاجتماعي الفريد .

وهذا التغيير يحتاج إلى جهود عظيمة ، وتوعية كبيرة ، حتى يؤتي أكلَه ، ويثمر عن نتائج طيبة ، متطابقة مع ما ينادي به التشريع الإسلامي منذ البعثة المظفرة .

الأسرة المسلمة والنمط الاجتماعي الغربي :

بدأت الكثير من الأسر المسلمة تتخلى عن نمطها المعهود ، وتغرق في الأسلوب الحياتي المستورد ، غير أنها في تحولها ذاك ، لم تتمكن من تجاوز تلك التقاليد والقيم التي تجذَّرت في وجدانها ، وفي سلوكها التربوي ، رغم المحاولات العديدة المبذولة .

وأيضاً رغم الدعوات المتكررة ، التي تدعو إلى تحديث الأسرة المسلمة على غرار الأسرة الغربية ، وهي – في أغلبها – دعوات ترفض القيم الدينية ، وتحاول – جاهدة – إحلال قِيَم أخرى أفرزتها نظريات التربية الحديثة .

وذلك ضمن نهج متحلل ، مسلح بمختلف الوسائل التي تعمل على اقتلاع الأُسُس الأخلاقية ، الفردية منها والاجتماعية .

إن تلك المحاولات قد وجدت تُربة خَصبة للنمو لدى عِدَّة أُسَر مسلمة ، كمحاولات للتأثر بهذا النمط الجديد للتقدم الاجتماعي ، الذي تحمل شعاراته تيارات مشبوهة تقف – سِرّاً وعَلانية – ضد الأطروحة الإسلامية .

وبين القناعة والتقاليد تعيش الأُسَر المسلمة – كحال المجتمعات الإسلامية – مرحلة حَرِجة من مراحل التطور ، التي تظهر بدائل جديدة تَلقى بعض القبول ، لأنها تُلبِّي حاجات نفسية مريضة ، كما أن هناك تحديات أخرى تواجه الأسرة المسلمة في مختلف المجتمعات الإسلامية ، بإمكاننا ذكر نوعين منها :

الأول :

أن هذا التحدي الذي هو نِتاجٌ لعصرنا الحالي ، ولا يطرح مسألة خروج المرأة إلى العمل من عدمها ، لأن هذه القضية محسومة وليست مَحلّ نقاش الآن .

ولكنه يقف أمام تلك المحاولات التي تريد أن تجعل البيت يفقد قدسيَّتَه ، والأسرة المسلمة تسكن الشارع ، مما ينتج عن ذلك جيلاً مُشوَّهاً ، لا هو أصيل في انتمائه الحضاري ، ولا هو قادر على التكيف مع المدنية الحالية .

والمهم أننا فعلاً نواجه – بشكل عام – تحدياً تفرضه طبيعة الحياة المعاصرة ، والذين يحاولون تجاوزه كأنهم يحاولون تجاوز الحياة نفسها .

الثاني :

أما التحدي الآخر ، فهو نابع من الخارج ، ويمكن توضيحه من خلال مستقبل العلاقات بين الآباء والأبناء ، فمثلاً إن الأطفال الذين يتعلمون لغات أجنبية تجهلها كثير من الأمهات ، ويحسنون التعامل مع الوسائل التقنية الحديثة ، فهم يتعاملون مباشرة ودون وسيط مع إنجازات العصر .

أي : أنهم يشكلون أناساً لعصر جديد ، يختلفون تماماً عن أمَّهاتهم وآبائهم ، وهذا سيدفع إلى الصراع المستقبلي بين الأجيال ، ما لم يتمكن الوالدان من تثقيف أنفسهما ، واستيعاب المنجزات العصرية الجديدة .

والأسرة المسلمة – رغم هذه التحديات – تعيش في بداية القرن الواحد والعشرين على تراكمات ثقافية وحضارية فيها سلبيات كثيرة ، وفيها أيضاً إيجابيات

لكن المؤكد أنها لن تعجز عن المواجهة من أجل البقاء ، رغم أن جميع المُعطَيات الحالية في العالم الإسلامي تشير إلى تفككها وانحلالها ، لكن هناك أيضا مؤشرات تشير إلى عودة الوعي الديني .